باطل الأباطيل

(جامعة ١: ٢)

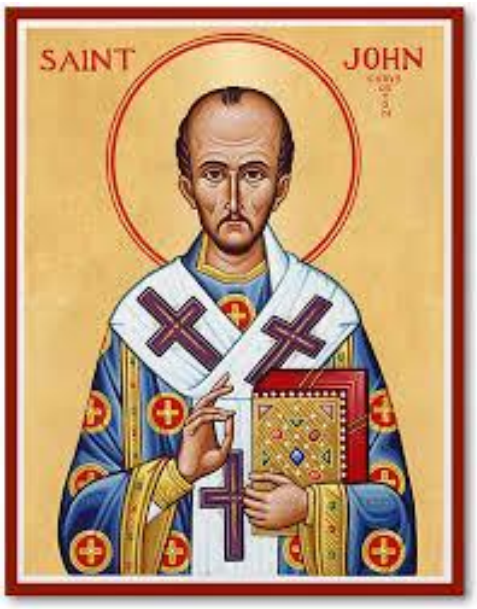

القديس يوحنا كريزوستم المعروف بيوحنا ذهبي الفم (٣٤٧ - ٤٠٧)

يوحنا ذهبي الفم أو **يوحنا فم الذهب** (347–407م) باليونانية Ἰωάννης ὁ Χρυσόστομος (*يوانوس خريسوستوموس*)، كان بطريرك القسطنطينية واشتهر كقديس ولاهوتي .عُرف باليونانية بـ «ذهبي الفم» لفصاحته، إذ كان تلميذ معلم البلاغة الشهير ليبانيوس .ويُعتبر يوحنا ذهبي الفم أنطاكي الأصل قديسًا لدى جميع الطوائف المسيحية وتعتبره الكنيسة الرومانية الكاثوليكية أحد ملافنتها الكبار. يعني لقب Χρυσόστομος (كريسيستوموس، يُسمى بالإنجليزية Chrysostom ، كريسوستوم) «ذهبي الفم» باللغة اليونانية ويشير إلى بلاغته المشهورة. كان ذهبي الفم من أكثر المؤلفين إنتاجًا في الكنيسة المسيحية المبكرة، لم يفوقه سوى أوغسطينوس من هيبو في كمية كتاباته الباقية.

يعتبر القديس كريزوستم (أو يوحنا ذهبي الفم) من أبلغ من أنجبتهم الكنيسة المسيحية في الخمسة القرون الأولى . ولد في أنطاكية سنة ٣٤٧، وفي شبابه وقف كأوغسطين وقفة الحائر بين الوثنية والمسيحية ، حتى اعتنق المسيحية بتأثير أمه (أنتوزا) مثلما حصل لأوغسطين وفي سنة ٣٨٦ عين راعياً ، فاسترعى وعظه انتباه رئيس وزراء الإمبراطور أركاديوس الذي دعاه إلى القسطنطينية حيث عين أسقفاً . وهناك كان يعظ ببلاغة فذة ضد الخطايا المتفشية في عصره وفساد القصور ورجال الدين لدرجة أنه نفى ، ولكن النفي لم يسكته بل كان يكتب الرسائل القوية إلى كل حدب وصوب . وفي سنة ٤٠٧ مات وهو في طريقه إلى المنفى ، وكانت آخر كلمة لفظها : " ليتبارك الله في كل شيء ". وتعتبر كتاباته ذخيرة نفيسة للكنيسة.

أخي ، إذا ما رأيت إنســـانا غنيا يتقلب في اعطاف النعيم والترف فلا تغبطه ، ولا تغر منه ، بل راجع المثل الذي ضربه السيد عن لعازر المسكين وذلك الغني القاسي ، وكيف كان مصير الإثنين . فذاك الفقير القانع بحاله ، مع أنه كان مريضـا شـقيا لا يملك شـيئا ولا يتمتع بالفتات السـاقط من مائدة الغني الملآن صـــحة ووفرة ، لم يكن ليحســـد الغني أبدا ولا ينســـب شـــيئا من الظلم لتدبير الله وعنايته . بل كان راضـــيا شـــاكراً. وأما أنت فقد تكون في حال طيب ورغد من العيش ومع هذا فقلما تشـــكر الله أو تحمده على نعمته. ولماذا تجتهد أن تكون غنياً ؟ ألكي تصـــير حكيما محبا للغير تنفق وتنفق في سبيل الله ، تقياً طاهراً مملوء أعمالاً صالحة ؟ أو لتتمتع بمركز عال لا يســـتطيع أحد من النـاس أن يطـاولـك إليـه، ولا ترد لـك كلمـة فتكون مهـابـاً مطـاع، ذو كلمـة نافذة يتسابق الناس في إزجاء الإطراء والمديح إليك ؟

لا شك أن الغِنَى يملأ الناس كبرياء وغروراً وتشامخاً ويجر على النفس شقاء وبلاء. وإذا كشفت ما تبطنه أفئدة الناس المداهنين المرائين للأغنياء لوجدت الغيظ المكبوت والبغضـــاء الدفينة في نفوسـهم ، . يشـمتون فيهم إذا فاجأتهم مصـيبة أو نزلت بهم كارثة . ولا بد أنكم شـاهدتم بأنفسـكم ورأيتم ذلـك الـذي كـان يومـا مـا غنيـا ذا جـاه وســـطوة كيف فـارقتـه قوتـه وســـلطتـه وهو لا يزال على قيد الحياة . ولا نكون مخالفين الحق إذا قلنا إن الغِنَى عبد آبق، وسفاح قاتل ، يمد يده على سيده مطوح به في الرزايا والبلايا . ترى هل وصل إنسان إلى مرتبة أنتروبيوس وزير على مملكة الرومان ؟ وهل وجد أحد يماثله في الغِنَي والثراء والجاه ؟ ألم يرتق إلى أســـمي الرتب واعلى الدرجات ؟ ألم يرهب الناس إسمه ؟ أما الآن فقد أضـحى طريداً شـريراً أقل قيمة من القتلة المجرمين المحكوم عليهم في الســـجون . ومن هول ما اســـتولى عليه من الرعب غشـــيت عيناه وأضحى لا يبصر نور الشمس جزاء وفاقا لما اقترف من الآثام والإجرام.

ملاحظة المعرب

كان أنتروبيوس الذي ألقيت هذه العظة بمناسبته وزيرا في مملكة أركاديوس المعاصر للقديس يوحنا ذهبي الفم . وكان هذا الوزير العاتي الجبار يغتصـب أموال الناس وأملاكهم . وأقنع أركاديوس أن ينقض عادة صـالحة من عهد الملك قسـطنطين و هي أنه إذا اتفق لأحد المذنبين المسـاقين للقتل أن يهرب ويلجأ إلى الكنيسـة كان يخلص وينجو من العقاب. ولكن الحفرة التي حفرها وقع فيها ، لأنه لم تمض إلا أيام قليلة حتى ارتكب ذنباً عظيماً ضـد الملك ، فأصـدر الملك الأمر بقتله . وعندئذ هرب إلى الكنيسـة لكي ينجو من القتل ، وكان مختبئا وراء الستار . وفي ذلك اليوم حضـر الملك والملكة والنبلاء والشـرفاء والوزراء في المملكة ، ، حتى قيل ان العرائس هجرن

خدورهن في ذلك اليوم ليشـــهدن هذا المنظر العجيب . وضـــاقت كنيســـة أيا صـــوفيا العظيمة على رحباتها بالجماهير التي حضرت حتى لم يكن موضع لقدم ، وحينئذ وجه (يوحنا ذهبي الفم) الكلام إلى أفتروپيوس قائلا: باطل الأباطيل قال الجامعة . باطل الأباطيل الكل باطل - قول صادق دائماً ابداً ، ولكن يبدو أنه اصدق الآن منه في كل آن. أين الآن أبهة الرئاسـة وشـرف الوزارة ؟ وأين أضـواء المصـابيح ، وأنوار المشـاعل ، واحتفالات الرقص واللهو، وولائم الترف ، وحشـــود الجماهير تضـــج بها الأندية ، وتزخر بها الميادين ؟ أين الأكاليل من أغلى الجواهر ، والستائر من حرير الصور ؟ اين الهتافات الكاذبة تشق الحناجر في شوارع المدينة ، والتصفيق الحاد يداهن به ألوف النظارة وجموع المتفرجين في الســـاحات ؟ أين هذه كلها الآن ؟ لقد اضـــحى هذا كله في خبر كان . إن الزوبعة المائية قد ثارت وصـدمت الشـجرة فتناثرت أوراقها هنا وهناك، ثم اقتلعتها من جذورها وبددتها عرض الريح.

أين الأصـــحاب الخونة ، ورفقة الزملاء الذين لا عهد لهم ولا أمان ، واين الموائد الملأى بالقصـــاع الغالية والأطعمة الشهية و الخمور المعتقة تتناولها الأيدي ، واين الولائم العظيمة يؤمها عبيد الملذات و عباد العظمة ؟ ماذا دهاها ؟ لقد ذهبت أدراج الرياح، بل اختفت كحلم عند التيقظ ، وذوت كزهرة الربيع تحت وطأة الريح العاتية ، بل تحولت تحول الظل ، بل تفرقت كما يتفرق الضـــباب ، وتلاشـــت كزبد الماء على ســـطح البحر ، وانقطعت كخيوط العنكبوت . إذن قولوها كلمة حق مدوية : « باطل الأباطيل الكل باطل ». اكتبوها على حيطانكم ، وملابســـكم ، وأنديتكم ، وشـــوارعكم ، و بيوتكم وأبوابكم ، و نوافذكم . بل اكتبوها على صـــحائف ضمائركم لكي تكون ماثلة دائما في أفكاركم . وإن جلستم على موائدكم، أو احتشدتم في اجتماعاتكم ، كرروها كل واحد إلى جاره: " باطل الأباطيل الكل باطل ". ثم إلتفت إلى أفتروپيوس قائلا:

وأنت ، ألم أقل لك مراراً وتكراراً أن الغني ليس بدائم ، بل على حين غرة يرفرف بجناحيه ويغيب عن الأنظار ؟ فلم تســـتمع لقولي . ألم أقل لك ان الشـــهرة ظل يحول ، والصـــيت دخان يتلاشـى شـأنه شـأن الأصـحاب الكذبة الذين هجروك في سـاعة الضـيق وكانوا قبلا يلتفون حولك لمآربهم ؟ لكنك لم تصـدقني . أجل ، إنك قد تعلمت الآن درسـا قاسـية بالاختبار أن الثروة ليسـت عبداً ناكر الجميل وحسب بل سفاح ذميم، لقد جعلت مني عدواً لك حينما كنت انصحك . ولكن ألم أقل لك انني خل وفي لك اصـــدق من أولئك الذين خدعوك وغرروا بك ؟ أما قلت : أمينة هي جروح المحب وغاشـة هي قبلات العدو ؟ فلو احتملت جروحي كانت شـفاء ، أما قبلاتهم فشـقاء . أين الأغنيات التي كانوا يســـتقبلونك بها ؟ واين جيش العبيد الذين كانوا يفســـحون الطريق قدامك إجلالا وتكريما لعظمتك ؟ لقد انقلبوا أخصـاماً وأضـداداً لك ، يتنكرون لك و يتربصـون بك الدوائر . ولكني أنا الذي لم تطق معي صـــبرا لم اتركك ، وأنا الوحيد الذي اســـندك واعزيك في سقوطك . لقد ناصبت الكنيسة العداء ، وحاربتها بكل ما أوتيت من قوة ، وهي الوحيدة التي تفتح احضانها لقبولك . كنت تفضل الملاهي ، والآن ها عبيدها يطلبون قطع راسك. ولما نصحتك أن ترد رجليك على الانحدار في مهواة الخراب هززت كتفك واعرضـــت عن نصـــحي هاربا إلى

الملهى . وها هي جماهير الملهي الذين أغدقت عليهم الخيرات يستلون السيف لقتلك ، أما الكنيسة التي كدرتها في هياجك فهي تسعى هنا وهناك لتنقذك من براثن البلاء الذي حل بك.

لا تظنوا أني أوجه قارس التأنيب لرجل زلت قدمه فهوى ، ولكن امنيتي هي أن احذر من هو قائم لئلا يسقط . ولست أقف هنا لأضع ملحاً على الجراح ، ولكن لأنبه الأصحاء من سهام الغرور المسمومة لئلا تصيبهم في الصميم. ولا أريد أن أدفع الغريق إلى دوامة الأمواج تجوز فوق ناصيته، ولكن اومئ إليه ليتعلق بحبل النجاة الموصل إلى السفينة الميممة وجهها إلى المرفأ الأمين . أي عظيم وصل إلى مرتبة هذا الرجل ؟ ولكن الرجل المحسود على الثراء والعظمة انحط من حالة الجاه والسؤدد إلى حضيض المهانة والذل. وها هو طريد شريد، بلا مأوى ، أقل شأنا من العبيد ، وأذل من الشحاذين. وها الطريق إلى الإعدام مفتوح أمامه، وعلى كلا الجانبين سيوف ومزالق وتنكيل وتعذيب. لقد استنفد كل ما في الملذات من صنوف حتى لم يبق أمامه إلا شبح مخيم من العذاب والهلاك. ولماذا أجهد نفسي في تصوير مستقبله وها هو بنفسه أمام عيونكم عظة لمن يتعظ وعبرة لمن يعتبر؟ !

كما إني لست أتشفى في بليته و محنته ، ولكن رغبتي هي أن المس قلوبكم منبها ضمائركم لتتخذوا من بليته درسا يعلمكم بلسان الملائكة الفصيح أن تقلعوا عن إهمالكم وتستيقظوا من سباتكم . يقينا أن بعضكم يوجه إلى اللوم لأني آويته . وعلام أُلام ؟ تقولون إنه كثيرا ما هاجم الكنيسة. نعم ، ولكنه الآن التجأ إليها واحتمى فيها . أفلا ينبغي أن ترفع الشكر لله لأن عدو الكنيسة عرف الآن رأفتها وسلطانها ؟ رأفتها لأنها تمد إليه يد العفو وتفرد له جناح الوقاية ، وسلطانها لأنها انتصرت وصارت لها الغلبة على كبريائه . ألا يخجل اليهود والوثنيون إذ يرون بوجوده هنا فوزا مبينة لعظمتها. لقد أنكر امتيازاتها ، وعمل على تدنيس مقادسها ، وها هو قد لجأ إلى مقادسها فأحاطته بذراعي الأم الرؤوم لترد عند نقمة الملك وغضب الشعب.

منقولة من كتاب أشهر المواعظ ترجمة الأخ واصف عبد الملك
الرب يستخدمها لبنيان الآخرين وتكون لمجد اسمه
صفوت زكي سمعان